# الدرر المختصر والسر المنتظر من معين أهل القرن الثالث عشر

تأليف شيخ الإسلام

الشريف جعفر بن إدريس الكتاني

( ١٢٤٦ – ١٣٢٣ )

تحقيق

الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني

# بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة التحقيق

## كتاب "الشرب المختصر"

### الناحية السياسية:

تتضمن حقبة القرن الثالث عشر الهجري تغيرات سياسية كان لها ما بعدها في التاريخ المغربي، ويمكن تقسيمها إلى فترتين:

***الفترة الأولى:*** منذ وفاة المولى محمد بن عبد الله (١٢٠٤/ ١٧٨٩) إلى معركة إيسلي عام (١٢٦٠/ ١٨٤٣) بين المغرب وفرنسا التي استعمرت الجزائر، وتعد هذه الفترة فترة انتكاسة وتضييع للازدهار والمكتسبات الكبرى التي اكتسبها المغرب في فترة حكم المولى محمد بن عبد الله.

فقد اتسمت فترة المولى سليمان (١٢٠٤/ ١٧٨٩ – ١٢٣٨/ ١٨٢٠) بعدم الاستقرار السياسي؛ خاصة وأنه قد عزل أو استقال ثلاث مرات، وكثر الخارجون عليه، ومع فضله العلمي والشخصي فقد أهمل التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وتغافل عن السياسة الخارجية والداخلية، وألغى الجهاد البحري الذي كان العامل الأخير للهيبة المغربية في الخارج.

وبعد وفاة المولى سليمان شهد المغرب نوعا من الاستقرار الحذر في أوائل ولاية المولى عبد الرحمن بن هشام (١٢٣٨/ ١٨٢٠ – ١٢٧٦/ ١٨٥٩) ما لبثت أن تعكرت باستعمار الجزائر من قبل فرنسا عام (١٢٤٧/ ١٨٥٩)، ثم انهزام المغرب في معركة إيسلي أمام القوات الفرنسية الهزيمة النكراء التي كانت آخر مسمار في نعش الهيبة المغربية، والتي فكرت أوروبا بعدها جديا في استعمار المغرب واحتلاله.

تعتبر الفترة بين عامي (١٢٠٤/ ١٧٨٩ – ١٢٧٦/ ١٨٥٩) فترة حاسمة في التاريخ المغربي جديرة بالدراسة المعمقة، حيث كانت السبب الرئيس في جميع ما حصل للمغرب من بعد؛ سواء من الناحية الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والجيوسياسية ...إلخ. إلى استعماره عام (١٣٣٠ / ١٩١٢) من طرف فرنسا وإسبانيا.

**ويمكن تلخيص الأسباب الحقيقية لانهيار المغرب في النقاط التالية :**

١. عدم وجود تنظيم مؤسساتي يهيكل الصورة السياسية في المغرب، وينظم طريقة انتقال السلطة؛ بحيث كان المغرب دائما تحت رحمة الرجل الأول في البلاد، إذا صلح الحاكم صلحت الرعية، وإذا فسد؛ فسدت! . وعند غيابه بموت أو (حَرْكَة)؛ فإن الفوضى تعم البلاد من أولها لآخرها. فلم تكن وزارات ولا بلديات، ولا مؤسسة عسكرية منظمة، ولا اقتصاد ورجالات اقتصاد نافذين، ولا دستور محمي من قبل هياكل فاعلة.

٢. إغفال البوادي والأرياف، وإهمال الحواضر؛ فلو اهتم ملوك المغرب بتحديث البوادي – خاصة الأكثر بلبلة – كما فعل المرينيون، وإدخال الحضارة إليها، وإشغال أهلها بالعلوم والصنائع؛ لما انشغلوا بالفتن والعمالة لأعداء المغرب. ومع الارتفاع الثقافي للمواطن؛ تنعدم كثير من المشاكل الاجتماعية .

٣. انهيار القيم والأخلاق الدينية، وضياع التعاليم الإسلامية التي كانت السبب الأوحد في وحدة الفسيفساء الاجتماعية وترابطها، وانتشار الأعراف القبلية والجاهلية؛ فكل قبيلة تسطو على الأخرى من أجل اكتساب أراضيها ونهب ثرواتها، وكل صاحب سلطة يبتز من هو دونه من غير رقابة ولا رادع. وتم إضعاف المؤسسة الطرقية إلى حد كبير؛ خاصة بعد نكبة الزاوية الناصرية، فقل الوازع الديني والأخلاقي نتيجة كل ذلك.

٤. ضيق الأفق وغياب الوعي لدى أفراد المجتمع المغربي قيادة ورعية، كل هذا نتيجة لإضعاف المؤسسة العلمية التي كادت تنحسر في جامعة القرويين فقط، ونتيجة عدم مواكبة الحضارة التي كانت في طريقها للازدهار في أوروبا مع محاولتها الحثيثة – نظرا

للتناقضات التي كانت بينها، ومحاولتها اختراق المغرب – إدخال المغرب في دوامتها، سواء عن طريق اقتراحات زعماء بعض الدول الأوروبية، أو عن طريق السفراء المغاربة الذين كان يطلعهم الأوروبيون على آخر ما توصلوا إليه من الرقي والتقدم. وكان لتأخر دخول المطبعة إلى المغرب وما يتبعه من انتشار الكتب والصحف والمجلات الدور الكبير في التخلف الاجتماعي والعلمي، ومن ثمة السياسي والحضاري في البلاد.

٥. عدم التنسيق بين القوى الفاعلة في البلاد، وعدم وجود استراتيجية عامة تسير نحوها البلاد. فقد كان المغرب – حتى في أيام ازدهاره – يسير (على البَركة)، من غير خطط استراتيجية تسهر على تطبيقها مكاتب تضم النخبة العلمية والدينية والثقافية والقيادية والتجارية والصناعية... للمجتمع.

٦. ربط المغرب بعدة اتفاقيات اقتصادية وعسكرية وسياسية وأمنية غير مدروسة، بل نابعة من وهم الشهامة وجنون العظمة، كان لها الأثر الأسوأ على البلاد.

لهذه الأسباب ولغيرها انهار المغرب في وقعة (إيسلي)، والتي تبعها احتلال الإسبان لمدينة تطوان عام (١٣٧٦/ ١٨٥٩) من دون أية مقاومة تذكر، والذي كان أكبر صفعة للمغرب بعد وقعة (إيسلي)، والأشد ضررا عليه.

وقد عرفت هذه الفترة بعض الحركات الإصلاحية، والطرق الصوفية النافذة، والتي كان لها دور دعوي وإشعاعي محمود داخل المغرب وخارجه، غير أن الشيخ عبد الحي الكتاني – رحمه الله تعالى – لخص انتقاده لها من الوجهة السياسية والمنهجية في كتابه "المظاهر السامية في النسبة الشريفة الكتانية" (مخطوط) معقبا الحديث على دعوة شقيقه الشيخ محمد الكتاني الشهيد الإصلاحية بقوله: "إن شيوخ المغرب في القرن المنصرم (الثالث عشر الهجري) الذين اشتهرت طرقهم؛ لو كان لهم علم بالأحوال الوقتية وما يؤول إليه حال المغرب بعد قرنهم، ودققوا البحث في أسباب انحطاط الإسلام في كافة المعمور، وأوجه تقدم الأمم الأخرى؛ لما وصل الحال إلى ما نرى ويرى هذا المتنطع (لم يذكر اسمه). ولكن؛ لما اشتغل واحد بالنزاع والحض على لبس المرقعات دون غيرها، والآخر في تفضيل نفسه على الماضين والآتين، والآخر في غير ذلك مما ضرره على الإسلام بتفرقة كلمة أهله أكثر من نفعه؛ هوى الكل إلى الحضيض الأوهد...".

***الفترة الثانية – فترة الانهيار :*** وهي الفترة الممتدة بين عامي ( ١٢٧٦/١٨٥٩ – ١٣٣٠/١٩١٢ )، وقد تعاقب عليها أربعة ملوك، ضم هذا القرن اثنين منهم، وهما: محمد بن عبد الرحمن بن هشام ( ١٢٧٦/١٨٥٩ – ١٢٩٠/١٨٧٣ )، والحسن الأول ( ١٢٩٠/١٨٧٣ – ١٣١١/١٨٩٣ )، ثم المولى عبد العزيز بن الحسن (١٣١١/١٨٩٣ – ١٣٢٧/١٩٠٩ ) . وعبد الحفيظ بن الحسن (١٣٢٧/١٩٠٩ – ١٣٣٠/١٩١٢ ) وهي فترة الانهيار ثم الاستعمار . وإن كانت شهدت نوعا من الانتعاش في فترة المولى الحسن الأول .

فقد تسلم المولى محمد بن عبد الرحمن ملكا مثخنا بالجراح، وزاد الطين بلة احتلال إسبانيا لتطوان في العام الأول من ملكه، ثم انسحابها بشروط أنهكت خزينة الدولة. وكذا اتسمت بالتحرشات المتتالية لفرنسا بالحدود المغربية الشرقية، واستعمارها أقاليم توات والقنادسة.

وفي فترة المولى الحسن الأول فقد المغرب أقاليم السنغال وموريطانيا (شنقيط) وإفريقيا الوسطى وجنوب الجزائر . . .إلخ، وعمت "السيبة" (شريعة الغاب) جميع أنحاء المغرب حاشا المدن الكبرى. وكثرت ظاهرة أصحاب الحمايات؛ وهم التجار والنافذون المغاربة الذين يتحصلون على جنسيات أجنبية، تجعلهم في حصانة عن تطبيق القوانين المغربية عليهم .

***بيد أن المولى الحسن الأول قام بإصلاحات إنعاشية لشتى قطاعات الحكم بالمغرب؛ . . .***

**فعلى المستوى التشريعي :** أسس "مجلس علماء الشورى" والذي كان مجلسا استشاريا تعرض عليه كافة شؤون الدولة، ويستصدر فتاواه بشأنها، وكان أعضاؤه: جعفر بن إدريس الكتاني (مؤلف الكتاب)، وأحمد بن الطالب ابن سودة، وأحمد بن محمد ابن الحاج السلمي، والطيب ابن كيران، وعبد الله بن إدريس البدراوي.

**وعلى المستوى العسكري :** أحدث جيشا نظاميا حاول تجهيزه بمختلف أنواع الأسلحة الحديثة، وتدريبه على نمط الجيوش الغربية. وقام ببناء وتشييد عدة مصانع لتصنيع السلاح، وترس المدن الساحلية بقلاع وحصون متينة، وأرسل عدة بعثات طلابية لدراسة الفنون الحربية بأوروبا . غير أنه أسند قيادة الجيش لجنرال بريطاني، ففتح الباب أمام الجاسوسية الغربية على مصراعيها .

**وعلى المستوى العلمي:** أرسل عدة بعثات طلابية إلى أوروبا من أجل دراسة العلوم الحديثة والتعمق فيها؛ ليعودوا إلى المغرب بإصلاحات على جميع الميادين. وأدخل المطبعة إلى البلاد.

**وعلى مستوى الأمن الداخلي:** شغل غالب فترة ملكه في زيارة القبائل والمناطق النائية من أجل المحافظة على الأمن وقمع القبائل السائبة والخارجة عن السلطة المركزية؛ حتى قيل: كان عرشه على ظهر فرسه!.

غير أن المنية فاجأت المولى الحسن الأول بضواحي مراكش؛ لتفتح الباب على مصراعيها أمام الفتن والأهوال . . .

## *من الناحية العلمية:*

عرف المغرب منذ نشأته بوحدته المذهبية والفقهية، بل كثيرا ما وسم رجالاته بالجمود والتعصب المذهبي لرفضهم كل مذهب دخيل سوى مذهب إمام دار الهجرة، الذي هو مذهب آل البيت كذلك، والمغاربة منذ اعتنقوا الإسلام ولهم مزيد اعتناء ومحبة لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

غير أنه نظرا للتنافس الطبيعي الحاصل بين المؤسسة الحاكمة والمؤسسة العلمية الممثلة في جامع القرويين الأعظم وفروعه، في إطار التوازن الذي عرفه المغرب بين أربعة قوى: السلطة السياسية، والأشراف آل البيت، والسلطة العلمية ممثلة في العلماء، والسلطة الروحية ممثلة في الطرق الصوفية، نظرا للتنافس الطبيعي بين تلك القوى؛ فإنه جرت العادة بأن يكون الملك من دعاة الاجتهاد ونبذ التقليد، وهذا الدور يظهر جليا أثناء حكم الدولة الموحدية، خاصة في زمن عبد المؤمن بن علي (ت٥٥٧)، حيث دعت الدولة إلى نبذ التمذهب جملة وتفصيلا، وإحياء الاجتهاد والعمل بالكتاب والسنة والاستنباط منهما مباشرة.

وفي القرن الثالث عشر الهجري ظهر ملكان كانا من دعاة الأثرية والاجتهاد، وإن لم ينبذا كلية المذهب المالكي؛ وهما: محمد بن عبد الله، وسليمان بن محمد بن عبد الله، الأمر الذي حفز ظهور مجموعة من العلماء المجتهدين، والمحدثين الذين قاموا بجهود مهمة في مجال إحياء السنة والكتاب.

كما أثر هذا العمل من ناحية أخرى؛ في تنامي نوع من التعصب الفقهي، والتطوير البحثي خاصة مع اندثار دعوة المولى سليمان نتيجة كثرة الخارجين عليه، ونتيجة وفاته رحمه الله. إضافة إلى بروز عدة طرق صوفية كان لأعلامها دور مهم في الدعوة إلى إحياء السنة والآثار، نظرا لانبثاقها من الطريقة الشاذلية المتفانية في الذات المحمدية وما يتعلق بها صلى الله عليه وسلم. ومن أهم تلك الزوايا: الزاوية الناصرية، التي أنتجت أمثال محمد بن عبد السلام الناصري وتلامذته.

ولذلك نجد في القرن الثالث عشر محدثين حفاظا أمثال عبد الرحمن وعبد الله ابني إدريس العراقي، ومحمد بن عبد السلام الناصري، وعبد الهادي بن عبد الله العلوي، ومحمد بن حمدون ابن الحاج السلمي وأضرابهم.

وكذا نجد علماء وصفوا ببلوغ الاجتهاد المطلق أو كادوا؛ أمثال: حمدون ابن الحاج السلمي، ومحمد بن سعد التلمساني، ومحمد بن عمرو الزروالي، والطيب ابن كيران وغيرهم.

أما من ناحية البحث العلمي، وخدمة الفقه الإسلامي؛ فتعد فترة القرن الثالث عشر في المغرب، فترة مهمة في الفقه المالكي، حيث قام أعلام بتنخيل كتب المذهب، وتصحيح ما كتب فيه من شروح وحواشي، خاصة ما كتب على مختصر الشيخ خليل الذي يعد خزانة المذهب المالكي، ويأتي على رأس الأعلام الذين خدموا هذا المجال ويعتبرون رواد الفقه في المغرب: محمد التاودي بن الطالب ابن سودة المري، ومحمد بن أحمد الرهوني.

كما تجلت في فاس – خاصة – عدة مدارس علمية فقهية، شكلت مدارس علمية أحيانا، وعصبيات فكرية أحيانا أخرى؛ ومن أهم تلك المدارس: مدرسة التاودي ابن سودة وبنيه، ومدرسة حمدون ابن الحاج وبنيه، ومدرسة أبي حفص الفاسي ومحمد بن عبد السلام الفاسي (في علم القراءات خاصة) في بداية القرن، ومدرسة الوليد العراقي، ومدرسة محمد بن عبد الرحمن الفلالي، وعبدالهادي بن عبد الله العلوي، والمهدي بن الطالب ابن سودة المري في وسط القرن ونهايته.

ومن أهم الأسر العلمية التي كان لها الدور الرائد في بث العلم في فاس في تلك الحقبة: آل ابن سودة المريون، وآل ابن الحاج السلميون، والشرفاء العراقيون، وآل ابن كيران، وآل الفاسي.

كما أنه كان لهجرة الجزائريين إلى المغرب – خاصة التلمسانيين – بعد احتلالها من قبل الفرنسيين دور مهم في نشر العلم في فاس والمغرب، وإدخال دماء جديدة أنعشت الحياة العلمية والفكرية. ومن أهم أولئك الأعلام: محمد ابن سعد، والحاج الداودي التلمساني.

ويظهر الجدولان أدناه أهم المجالات العلمية التي برع فيها علماء فاس في تلك الحقبة – باعتماد عينة المؤلف التي اعتمدها – ونسبة المذكورين إلى الكل حسب استقرائه.

## من الناحية الصوفية:

اعتنى المغاربة منذ دخول الإسلام للبلاد بالجانب الروحي والسلوكي، وقد أشرت في مقدمة تحقيقي لكتاب "مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن" إلى أن نظام الطرق الصوفية في الغرب الإسلامي إنما يعد امتدادا تنظيميا وفكريا وسنديا للدولة الإدريسية، من أجل ذلك اعتنى المغاربة اعتناء كبيرا بهذا الجانب، وظهرت على دور تاريخه الكثير من الزوايا والأربطة التي كان لها دور مهم في إبقاء الإسلام غضا طريا في هذه البلاد.

وأهم طريقة استمرت وكتب لها البقاء في المغرب: "الطريقة الشاذلية"، التي أسسها الإمام أبو الحسن علي الشاذلي الإدريسي الحسني الغماري في القرن الثامن الهجري، وهو تلميذ وخريج مدرسة الشيخ عبد السلام بن مشيش الإدريسي الحسني. وهي طريقة سنية أثرية، لها مزيد تعلق بالسنة النبوية، واعتناء بالشمائل المحمدية صلى الله عليه وسلم.

ومن أهم فروع هذه الطريقة في المغرب: الزوايا: الزروقية، والوازانية، والريسونية، والفاسية، والدلائية، والناصرية، والعياشية، والدرقاوية، تلك الزوايا التي أنتجت آلافا من شيوخ التربية والأخلاق، والمجاهدين والزعماء الكبار، والعلماء الأعلام.

وإضافة إلى الطريقة الشاذلية؛ فقد عرف المغرب انتشارا للطريقة القادرية في نهاية القرن الحادي عشر ممثلة في الشيخ أحمد اليمني الحسني، ثم التجانية ذات المشرب القادري في بدايات القرن الثالث عشر الهجري. كما عرفت الساحة دخولا محتشما للطريقتين الخلوتية والنقشبندية وغيرهما من الطرق الصوفية خاصة في القرنين الثاني والثالث عشر وما بعدهما.

وضمن كتاب "الشرب المحتضر" الذي نحن بصدد الحديث عنه، يمكن تمييز شيوخ التربية المذكورين إلى الأنواع التالية:

١ – شيوخ سلوك:

أ – شيوخ ملتزمين بطرق صوفية: الطريقة الناصرية. الطريقة الدرقاوية. الطريقة الخلوتية. الطريقة التجانية. الطريقة الوازانية. الطريقة الريسونية. الطريقة المحمدية الكتانية. الطريقة الحمدوشية. الطريقة العيساوية. . .وغيرها.

ب – وشيوخ مستقلين لهم طريقتهم الخاصة في التسليك.

٢ – شيوخ جذب. وهذا الكتاب يعد مرجعا مهما لدراسة شيوخ الجذب وأسانيدهم وطرقهم، ليكون مدخلا إلى دراسة ظاهرة الجذب في العصور المتأخرة ككل.

ومن أهم الأسر التي كان لها دور فاعل في التربية الروحية والسلوكية في تلك الحقبة في المغرب: الكتانية، والوازانية، والريسونية، والزويتنية، والدباغية، والصقلية، وجلهم أشراف وأدارسة.

والجدول الأول أسفله يبين بوضوح عدد رجالات التصوف في فاس ومقاماتهم حسب العينة التي جمعها المؤلف رحمه الله تعالى:

***الجدول (أ) يبين تمايز ماهية المترجمين في كتاب "الشرب المحتضر"***

| العقد | علماء | شيوخ التربية | أقطاب | صلحاء | مجاذيب |
|---|---|---|---|---|---|
| الأول | ٤ | ٠ | ٠ | ٠ | ٠ |
| الثاني | ٧ | ٤ | ٠ | ١ | ٢ |
| الثالث | ٤ | ٠ | ٠ | ١ | ٠ |
| الرابع والخامس | ١١ | ٢ | ١ | ٣ | ١ |
| السادس | ٥ | ٢ | ٢ | ٢ | ١ |
| السابع | ٦ | ١ | ٠ | ٦ | ٢ |

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| الثامن | ٨ | ٤ | ١ | ٥ | ٣ |
| التاسع | ٢ | ٢ | ٠ | ٨ | ١ |
| العاشر | ٤ | ١ | ٠ | ٤ | ٤ |
| المجموع | ٥١ | ١٦ | ٤ | ٣٠ | ١٤ |

**الجدول (ب) يبين أهم العلوم والمناصب العلمية التي زاولها العلماء المذكورون في "الشرب المحتضر"**

| الصفة | شيخ الجماعة | قاضي الجماعة | قاض | مقرئ | | محدث |
|---|---|---|---|---|---|---|
| العدد | ٢ | ٧ | ٣ | ٤ | | ٤ |
| الصفة | مجتهد | لغوي | أديب | خطيب | نسابة | الطب والحرُف والحكمة |
| العدد | ٣ | ٤ | ٤ | ٧ | ٢ | ٢ |

## كتاب "الشرب المحتضر":

يعد كتاب "الشرب المحتضر" من أوائل الكتب التي دونت في وفيات فاس القرن الثالث عشر، حيث أتمه المؤلف حدود عام ١٣٠٥هـ، وطبع بالمطبعة الحجرية الفاسية عام ١٣٠٩هـ. وقد استهله مؤلفه بقوله: "هذا – بحول الله – مَهْيَع تنشرح له الصدور، ويكمل به الإيمان والسرور، وتملأ محاسنه الأزمنة والدهور، ويكون لنا ذخيرة يوم البعث والنشور، يفوح منه أذكى مسك عرف وطيب، ويتذكر به المنزل والحبيب، في ذكر بعض الأصفياء من أهل القرن الثالث عشر، ممن أقبر معظمهم بحاضرة فاس زاوية أهل الفضل من بدو وحضر، تعلقا بأذيال أهل الله، وجناب كل حليم أواه؛ لأن التعلق بهم تعرض لرحمته، واستمطار لنفحاته وإحسانه ومنته، امتثلت به الأمر المحتوم، وأديت فيه الفرض الملزوم".

فهو مقصور – في العموم – على ذكر من أقبر من العلماء والصلحاء بفاس في القرن الثالث عشر، ألفه مؤلفه استيفاء لعدة أغراض أبرزها في مقدمته، تتلخص في:

١ – شرح الصدور. فهو يشرح الصدور، سواء بإحياء ذكر من مضى من أهل فاس، من مشيختها وآبائها، وبإيقاف الخلف على تراجم وفضائل من مضى من سلفهم المبارك.

٢ – إكمال الإيمان والسرور. ومن كمال الإيمان إحياء ذكر وسيرة أعلام الإيمان من رجال علم وتربية وسلوك، وكذلك ذكر أحوالهم ومقاماتهم ليكونوا محل القدوة والاتباع، والتخلق بأخلاقهم. فهو كتاب دعوة إلى الله تعالى، ودعوة إلى انتهاج سيرة السلف الصالح والاقتداء بهم.

٣ – وتملأ محاسنه الأزمنة والدهور. وذلك برفع معنويات جيله الذي كان يصارع الاستعمار عسكريا وفكريا، فالمغرب أنجب رجالا علماء أفذاذا، لهم الدور الريادي على مختلف المستويات الفكرية والثقافية والروحية، يستحقون أن نقارع بهم أعلام الغرب وفلاسفتهم، ومن هنا يظهر الدور البعثي (نسبة للبعث لغة لا فكرا) والوطني للكتاب.

٤ – ويكون ذخيرة يوم البعث والنشور. فالمؤلف – كذلك – لا يغفل الجانب التعبدي الذي يقوم به حين يحيي سيرة المذكورين، وكأنه يتمثل الأثر القائل: "من أرخ عالما فكأنما أحياه".

٥ – ويتذكر به المنزل والحبيب. فللكتاب جانب إنساني كذلك، يأنس إليه قارئه، وتميل إليه مشاعره بتذكر عهود سلفت، وأناس ربطته بهم أبوة الدم والعلم والروح والجيرة. فيطالعه الأصدقاء والزملاء، ويتدارسه الوالد مع الأبناء، والشيخ مع تلاميذه، والمربي مع مريديه.

٦ – من أهل القرن الثالث عشر. فالمؤلف قصر تراجمه على أهل القرن الثالث عشر الهجري، ليصبح كتاب وفيات، محدودا بزمن معين، وإن كان خرج فيه عن شرطه بترجمته المجذوب سيدي عبد الله الوازاني البقالي.

٧ – ممن أقبر معظمهم بفاس. فالكتاب مقصور على ذكر من أقبر بفاس – مع استثناء طفيف؛ لقوله: معظمهم، ويقصد بالاستثناء: محمد بن محمد الصادق ابن ريسون، وكأنه استثناه لمكانته في أهل البيت عليهم السلام، وجمعه بين مشيخة العلم والتصوف، إضافة إلى الرفعة في الشرف.

٨ – تعلقا بأذيال أهل الله. فهو يحسن إلى الصالحين ومن في حكمهم، تقربا إلى الله تعالى، إذ محبة أوليائه من محبته، وبغضهم من بغضه والعياذ بالله تعالى. ولذلك ورد في الصحيح: "المرء مع من أحب"، وكذلك: "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب".

ونحن نجد أن المؤلف رحمه الله تعالى أغفل في كتابه ذكر الملوك وأرباب الدولة من وزراء وغيرهم بالرغم من أنه لم يصرح بذلك في مقدمته، وكأنه أراد أن يكون كتابه كتاب إرشاد وتوجيه بعيدا عن السياسة وما تفضي إليه من نزاع وفرقة.

كما أنه اعترف بأنه لم يأت من تراجم القرن إلا بقلة من كثر، متعللا بضيق الوقت وكثرة المشاغل، الأمر الذي يمكن عن طريقه اعتبار الكتاب عينة (Sampling) تصور الحالة العلمية والدينية في فاس في القرن الثالث عشر الهجري، استخلصنا من خلالها الجدول المرسوم أعلاه.

ثم يختم المؤلف مقدمته ملتفتا إلى طبقة العلماء وطلبة العلم مستشهدا بمقولة الإمام ابن عبد البر النمري رحمه الله قائلا: "قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر في استذكاره: معرفة أعمار العلماء والوقوف على وفياتهم؛ من علم خاصة أهل العلم، وإنه لا ينبغي لمن وسم بالعلم نفسه ذلك، وإنه مما يلزمه من العلم العناية به والقيام بحفظه أشد". مشيرا إلى أن كتابه لبنة مهمة لطالب العلم، ومنبها أهل فاس والمغرب عموما للاعتناء بعلم التاريخ والتراجم، وهو أمر نعى عليهم العلماء عدم الاعتناء به حتى قال العلامة العربي الفاسي في ديباجة "مرآة المحاسن": "وسموا المغاربة بالإهمال، ودَفنِهم فضلاءهم في قبري تراب وإخمال!؛ فكم فيهم من فاضل نبيه؛ طوى ذكره عدم التنبيه؛ فصار اسمه مهجورا، كأن لم يكن شيئا مذكورا".

## منهج المؤلف:

يظهر منهج المؤلف جليا مما حللناه من مقدمة الكتاب، فقد التزم ما ألزم به نفسه من حيث ترتيب التراجم، والاقتصار على من أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس، غير غافل عن الجوانب الوعظية والتذكيرية، والوطنية والتربوية والثقافية.

فقد رتب المؤلف كتابه ترتيا تاريخيا، مبتدئا من سنة ١٢٠٥، ومنتهيا بسنة ١٣٠٥، متضمنا (١٠٨) ترجمة، وفي كل ترجمة يعتني بذكر الألقاب التي بها يميز المترجم من غيره، بحيث تحكي لوحدها مقدار المترجم العلمي، وما هي العلوم التي برز فيها ونبغ. كما يعتني بذكر الولادات والوفيات، ومحال الدفن، وربما تحدث عن نسب المترجم له وأصله. وفي كل ترجمة يعتني بذكر أهم

شيوخ المترجم – وإن كان مجذوبا ساقط التكليف – وتلامذته والآخذين عنه، وأحيانا يذكر أهم مؤلفاته أو ما يميز ترجمته من بعض القصص والأخبار – خاصة فيما يخص الصلحاء والمجاذيب، بل ربما تعرض لوصف بعض المؤلفات وذكر قيمتها .

وتراجم الكتاب مقتضبة، كأنه جعلها تذكرة لتحفظ وتستوعب، أو تقييدا لحفظ ما لا يسع المؤرخ جهله من أهل فاس في القرن الثالث عشر. كما أن المؤلف اعتنى بالتنصيص على مشيخته ومن أخذ عنهم أو التقى بهم من أصحاب التراجم المذكورين، وإن كان أغفل ذكر بعض من لا يمكن أن يُغفل من أهل ذلك القرن، خاصة والده العلامة المجاهد إدريس بن الطائع الكتاني المتوفى عام ١٢٨١، ويظهر أن ذلك لم يكن سوى تحاشيا للظهور بمظهر الذاتية كما جرت العادة لدى متقدمي أعلام البيت الكتاني.

كما أن الكتاب لا يخلو من وطنيات وذكر لبعض الأخبار – كاحتلال الجزائر مثلا – وتأثير ذلك على الساحة المغربية حينه، وهو في نهاية تراجمه – في العموم – يورد مصادره التي اعتمد عليها حين الترجمة.

## مراجع "الشرب المحتضر":

اعتمد المؤلف – رحمه الله تعالى – على العديد من المراجع، جلها يعتبر موجودا، غير أن شطرها لازال لم يطبع بعد . وأهم المراجع التي اعتمد عليها وصرح بذكرها:

"الدر النفيس في أولاد محمد بن نفيس" للشريف عبد الله الوليد العراقي. و"المورد الهني في ترجمة الشيخ مولاي عبد السلام القادري" لمحمد بن أحمد الفاسي الفهري، "والسر الظاهر فيمن أحرز بفاس النسب الباهر من أبناء الشيخ عبد القادر" للشريف سليمان بن محمد الحوات، "وثمرة أنسي بالتعريف بنفسي" للشريف سليمان بن محمد الحوات، و"الإشراف على من حل بفاس من مشاهير الأشراف" للطالب بن حمدون ابن الحاج السلمي، و"الروضة المقصودة . والحلل الممدودة . في مآثر بني سودة" للشريف سليمان بن محمد الحوات، وحاشية محمد بن أحمد الرهوني على شرح الزرقاني على مختصر الشيخ خليل، وطبقات أحمد بن محمد ابن عجيبة، و"عناية أولي المجد بذكر آل

الفاسي ابن الجد" للسلطان الشريف سليمان بن محمد العلوي، و"الدرة الفائقة في أولاد علي وفاطمة" للشريف محمد الزكي العلوي، و"نظم الدر واللآل في شرفاء عقبة ابن صوال" للطالب بن حمدون ابن الحاج السلمي، و"إمداد ذوي الاستعداد إلى معالم الرواية والإسناد" لعبد القادر بن أحمد الكوهن، و"جواهر المعاني في فيض أحمد التجاني" للحاج علي حرازم بن العربي برادة، و"التأسيس في مساوي الدنيا ومهاوي إبليس" لمحمد بن قاسم القندوسي، و"كنز الأسرار في مناقب مولانا العربي الدرقوي وبعض أصحابه الأخيار" لأبي زيان المعسكري، و"النور القوي في ذكر شيخنا عبد الواحد الدباغ وشيخه مولاي العربي الدرقوي" للمهدي ابن القاضي.

فهي مراجع – على قلة عددها – تنم عن توسع في المدى العلمي، لتنوعها معرفيا، كما أنها توضح بشكل جلي أن المؤلف كان يرجع في تراجمه إلى المصادر الأولى والمختصة بالمترجم لهم.

## مزايا الكتاب:

أسلفنا الحديث عن أن كتاب "الشرب المحتضر" يعد من أوائل الكتب التي أفردت في وفيات القرن الثالث عشر الهجري، ونظرا لموضوعها، وموسوعية مؤلفها ودقته العلمية، بحيث كان يعد شيخ الجماعة في وقته؛ فقد اتسم الكتاب بعدة فوائد نذكر منها على سبيل المثال:

- تصوير المترجم لهم، وتعيين أهم معالم حياتهم بلغة مختصرة وواضحة.
- الاعتناء بذكر مجتهدي القرن المذكور.
- الاعتناء بإيراد سلاسل المشيخات الفقهية والصوفية، بحيث عن طريقه يمكن رسم عدة مشجرات سندية مهمة للمدارس العلمية والصوفية في القرن المذكور.
- ترجمة مجموعة من الأعلام الذين يعد أول من كتب عنهم.
- الاعتناء بذكر الوفيات تفصيلا ومواقع دفن المترجم لهم.

- الاعتناء بذكر أحوال المترجم لهم، وربما يتوسع في إيراد بعض قصص الصلحاء والمجاذيب الذين كان لأهل وقته اعتناء بتتبع أخبارهم، وقد يكون في بعضها إشارة إلى أهم وقائع الوقت كاحتلال الجزائر مثلا.

## النسخ المعتمدة في التحقيق:

اعتمدت في تحقيق الكتاب على نسختين؛ الأولى: الطبعة الحجرية، ورمزت لها بالنسخة (أ)، والثانية نسخة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ٢٧٤٤/د، ورمزت لها بالنسخة (ب).

أ- الطبعة الحجرية: وقد طبعت عام ١٣٠٩، في زمن مؤلفها وبتصحيحه، وهي تقع في ٤٠ صفحة، كل صفحة تضم حوالي ٢٧ سطرا، و كل سطر يضم حوالي أحد عشر كلمة.

ب- نسخة خطية غير مذكورة اسم الناسخ، تقع في ٦٨ صفحة، كل سطر يضم حوالي عشر كلمات، وكل صفحة تضم حوالي تسعة عشر سطرا، وخطها مغربي عادي، واضح، وبها بعض إلحاقات واختلافات عن النسخة الحجرية، أثبتناها في محالها، وهي تقع بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ٢٧٤٤/د.

## عملي في التحقيق:

حاولت في تحقيق للكتاب إثراءه بالحواشي والتحقيقات ليكون أسهل للقاريء، وأطوع للباحث والمحقق، فكان عملي على النحو التالي:

١. إغناء النص بأدوات الترقيم بحيث يكون شارحا نفسه بنفسه.

٢. إضافة عناوين افتقرت إليها نسخ الكتاب، مع وضعها بين قوسين مربعين: [ ] إشارة إلى أنها من إضافات المحقق لا من صلب الكتاب.

٣. عزو الآيات القرآنية إلى مصادرها من القرآن الكريم.

٤. تخريج الأحاديث النبوية.

٥. إخراج مصادر ترجمة جميع من ترجم لهم المؤلف، وقد التزمت في ذلك ذكر المصادر المطبوعة فقط.

٦. ترجمة من لم يترجم لهم المؤلف وهم مذكورون في النص.

٧. ذكر محال المخطوطات والمؤلفات المذكورة في المتن قدر المستطاع.

٨. توضيح ما أشكل في النص من معاني الكلمات الغريبة والعامية ليفهمها القارئ المغربي والمشرقي.

٩. التعليق على ما استوجب التعليق عليه من مواضع النص.

١٠. مطابقة الكتاب على النسخ المعتمدة، وإظهار بعض الاختلافات بين النسخ، واعتماد اللفظ الأنسب، مع الإشارة إلى الاختلاف في الحاشية. وقد علمت النسخة الحجرية بـ: النسخة أ، والنسخة المخطوطة بـ: النسخة ب.

١١. أثبت في الكتاب ترقيم نسخة الطبعة الحجرية نظرا لأن جميع المصادر تعزو إليها، ووضعت أرقام صفحاتها بين قوسين مربعين تمييزا.

١٢. تقديم الكتاب بدراسة حول الأوضاع العلمية والسياسية والصوفية بفاس في القرن الثالث عشر الهجري، مع ترجمة مقتضبة لمؤلف الكتاب الإمام جعفر الكتاني.

# ترجمة المؤلف[1]

## اسمه ونسبه:

شيخ الإسلام، ومفتي المغرب، الفقيه المشاور، أحد رواد النهضة العلمية والفكرية زمن السلطان الحسن الأول جعفر (الصادق) بن إدريس بن الطائع (المسلطن) بن إدريس بن محمد (الزمزمي) بن مَحمد (الفضيل) بن العربي بن مَحمد بن علي (الجد الجامع لفروع الشرفاء الكتانيين) الكتاني الإدريسي الحسني.

## ولادته ونشأته:

ولد بفاس حدود عام ١٢٤٦، وأخذ بها عن والده الشيخ أبي العلاء إدريس بن الطائع الكتاني، ومحمد بن عبد الواحد الكتاني، ومحمد بن عبد الرحمن الفلالي، ومحمد الطالب بن حمدون ابن الحاج السلمي المرداسي، وعبد الهادي بن عبد الله العلوي، وعبد السلام بن الطائع بوغالب، والوليد بن العربي العراقي. . .وغيرهم.

## تصدره للتدريس ونشاطه العلمي:

---

11) (*المراجع*: مقدمتا كتابي المترجم: "الدواهي المدهية للفرق المحمية"، و"أحكام أهل الذمة" كلاهما بتحقيق وتقديم الدكتور محمد حمزة بن محمد علي الكتاني، و"النبذة اليسيرة النافعة التي هي لأستار جملة من مزايا الشعبة الكتانية رافعة"، تأليف محمد بن جعفر الكتاني، تحقيق: محمد الفاتح الكتاني، ومحمد عصام عرار (٣٠١)، و"عقد الزمرد والزبرجد في سيرة الابن والوالد والجد" تأليف محمد الزمزمي بن محمد الكتاني، تحقيق د. علي بن المنتصر الكتاني، الجزء الأول، و"فهرس الفهارس والأثبات" تأليف عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، وتحقيق د. إحسان عباس (١: ١٧٦)، و"شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، تأليف محمد بن محمد مخلوف (١: ٤٣٣)، و"المدهش المطرب في معجم الشيوخ" تأليف عبد الحفيظ الفاسي (١: ١٧٣)، و"الأعلام" لخير الدين الزركلي (٢: ١٢٢)، و"إتحاف المطالع بوفيات القرن الثالث عشر والرابع" تأليف عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، تحقيق د. محمد حجي (١: ٣٦٥)).

وعرف بنبوغه المبكر، وتصدر للتدريس في ريعان شبابه بجامع القرويين والزاوية الكتانية الكبرا وغيرهما من مساجد وزوايا فاس، كما اشتغل بالعدالة في سماط العدول، والخطابة والإمامة بجامع الرصيف وجامع أبي الجنود ومسجد الحوت الذين تواتر على إمامتهما آباؤه. .وغيرها .

ونظرا لنبوغه فقد قربه ملوك المغرب؛ خاصة المولى محمد بن عبد الرحمن والمولى الحسن الأول، والمولى عبد العزيز، وصدروه في مجالس إقراء الحديث بالضريح الإدريسي، والمجالس العلمية بالقصر الملكي بفاس، بحيث تلمذ له جمع من أمراء البيت العلوي.

وبالرغم من رفضه تولي خطة القضاء في أي من مدن المغرب؛ فقد ظل المرجع في جميع الأحكام التي تستأنف عند السلطان الحسن الأول العلوي وعند ولده السلطان عبد العزيز دهرا طويلا، فلا يوقعانها ما لم يمحصها هو ويحكم فيها .

وكان أحد رجال مجلس الشورى الذي أسسه المولى الحسن الأول، إضافة إلى: أحمد بن الطالب ابن سودة، وأحمد بن محمد ابن الحاج، والطيب ابن كيران، وعبد الله بن إدريس البدراوي. وهم كبار علماء الوقت حينه، وكان له مزيد تقدم عليهم كما مر، بحيث يعد من الأعمدة الفكرية في عصر المولى الحسن الأول – خاصة – والذي كان عصر نهضة فكرية وعلمية وحضارية، بعث فيها الملك المذكور بعثات علمية إلى أوروبا، وأسس مصانع للسلاح وغيره، ونظم الجيش المغربي.

## حاله:

كان الشيخ جعفر الكتاني إماما من أئمة العلم في جميع الفنون، مجتهدا محصلا، محدثا حافظا، أديبا شاعرا ناثرا، متصوفا صالحا عارفا بالله تعالى. وكان يعرف في عصره بمالك الصغير، أو خليفة الإمام مالك؛ نظرا لتبحره في الفقه، ومعرفته بأساليب الاستدلال، وحفظه لنصوص المذهب، مع ميله للآثار، واعتنائه بنوازل الوقت؛ وهو الفقيه المشاور، بحيث يعد من مجتهدي المغرب في بداية القرن الرابع عشر الهجري، بل شيخ مجتهدي ذلك العصر.

وكان محدثا حافظا، له اعتناء كبير بعلم الحديث سندا ومتنا، حفظا وضبطا ونقدا، بحيث درس وسرد صحيح البخاري وحده بالزاوية الكتانية بفاس أكثر من عشرين مرة، وتلمذ له جميع

محدثي وحفاظ المغرب ممن أدركوه، وعنه أخذوا علم الحديث والاحتفاء به، وتم له سماع وإسماع غالب الكتب الستة.

كما كان لغويا متضلعا، متبحرا في علوم اللغة، أديبا شاعرا ناثرا، كاتبا بليغا، تصدر لتدريس تلك الفنون والتأليف فيها، والإفادة بها.

وكان الشيخ جعفر الكتاني أحد متصوفة عصره البارزين، بل يعد أحد شيوخ الطريقة الكتانية المحمدية، والزاوية الكتانية إلى جانب شيخه في الطريق؛ أبي المفاخر محمد بن عبد الواحد الكتاني؛ فقد كان شيخ العلم بالزاوية، والكاتب الخاص لشيخه ابن عبد الواحد ومدرس بنيه والواردين عليها، ومؤرخها من بعد.

وبالرغم من رفضه تقلد خطة القضاء؛ فقد كان مرجعا لقضاة المغرب في جميع ما يعسر عليهم من أبواب العلم والنوازل، إليه يرجعون، وبعلمه وفهمه يلوذون، وتحريره القول الفصل، بحيث كان يعد قاضي قضاة المغرب، فما من قاض في عصره إلا وتلمذ له وأخذ عنه واستفاد. قال حفيده المؤرخ محمد الزمزمي الكتاني في "حياتي" ص٢١: "قال لي بعض الأخوان: وقد تتبعت جل قضاة المغرب فوجدتهم تلامذته".

إضافة إلى استقامته، وفنائه في العبادة والزهد، وقيام الليل والصيام، وفعل الخيرات، وخشية الله تعالى في السر والعلن، وعدم خوفه فيه لومة لائم؛ بحيث كان إذا لم يعجبه أمر في مجلس السلطان أو رأى ميلا من بعض الحضور نحو الباطل؛ لبس نعاله وخرج غير مبال بزيد ولا عمرو.

وكان المترجم – رحمه الله تعالى – سيفا مصلتا على رقاب المتجنسين بجنسيات الأعداء من الأجانب (أهل الحمايات)، فقد ملأ المنابر فتاوى بردتهم ووجوب قتلهم ما لم يتوبوا، ومصادرة أموالهم، ودفنهم في غير مقابر المسلمين، وكتب في ذلك كتابه الشهير: "الدواهي المدهية في الفرق المحمية". وهو مطبوع بدار البيارق بالأردن.

وحين حاولت فرنسا احتلال شنجيط (موريطانيا) كتب في ذلك رسالة شهيرة، يوجب فيها قتال السلطان للفرنسيين، واستنفاره الرجال لحماية البلاد.